مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255
المجلد8،العدد1 – مارس 2021

OEB Univ. Publish. Co.

المرأة الأوربية الأسيرة لدى المغاربة والأتراك في الأدبيات البريطانية 1600-1830م

The women captivesunder the Moors and Turks in British's literatures 1600-1830

د. بلقاسم قرباش*، جامعة أم البواقي، الجزائر.
Kerbechb@gmail.com

تاريخ التسليم:(2020/10/21)، تاريخ المراجعة:(2020/11/09)،تاريخ القبول:(2020/11/30)

ملخص :

تهدف الدراسة التالية إلى تبيان رمزية المرأة المسيحية في الأدبيات البريطانية خلال العهد العثماني. وقد أشارت هاته الأدبيات دائما إلى المرأة الأسيرة على أنها "امرأة مسيحية شجاعة"، قاومت أعداء الدين المسيحي.

حاولت الأدبيات البريطانية دائما إظهار استطاعة الأمة البريطانية الحفاظ على هويتها رغم "الاستعباد" الذي كان يتعرض له مواطنوها تحت وطأة ما سمتهم "الأتراك والمغاربة الهمجيون".

الكلمات المفتاحية: المرأة الأسيرة، الأتراك، المغاربة، العهد العثماني، الأدبيات البريطانية.

Abstract :

The recipient / recipient is the third pillar of the creative process (the author, the author, the recipient). Contemporary critics have been very interested in serious studies and translations, especially in the post modernism. Has been explicitly mentioned within the mechanisms of the harmony of the semantic text in the linguistic studies except within the local interpretation element, the recipient has a fundamental and effective role in creating the harmony of the text and achieving its semantic coherence.

The recipient has an essential role in the process of interpretation and the construction of a coherent meaning of the text, no less than the role of the producer, which produces text in a single texture. It is what happens to the meaning by giving the dictionary meanings and absent or absent meanings after reading the text and linking the elements Constructivism within dialectical relations that refer to what is outside and reveal the signs in the processes of disassembly and structure. In this hidden link which is the recipient lies the intimate relationship between language and literature and criticism.

Key words: consignee, recipient, harmony, semantic cohesion, immersion of literature and criticism of language.

* المؤلف المراسل: **د. بلقاسم قرباش** ،الإيميل: **Kerbechb@gmail.com**

مقدمة:

نتج عن الصراع العثماني– الأوربي خلال الفترة الحديثة وقوع ملايين الأسرى من الجانبين، وكان بينهم آلاف النساء اللاتي وقعن أسيرات بيد الأتراك والمغاربة، ومنهن من اخترن العيش في هاته المجتمعات والتخلّي عن دينهن واعتناق الإسلام، والزواج والاستقرار على الأراضي العثمانية عن طيب خاطر.

لقد خلق اعتناق الأسيرات الأوربيات الإسلام والعيش على الأراضي الإسلامية، جدلا واسعا في الأدبيات الغربية، فظهرت المرأة الأسيرة على المسرح وفي الروايات الخيالية، وشُجّعت النساء العائدات من الأسر إلى وطنهنّ الأم على كتابة مذكراتهن الشخصية لتقديم نظرتهنّ حول المسلم والمجتمع الإسلامي.

وانطلاقا مما سبق جاءت الإشكالية الرئيسية كالآتي: كيف قدّمت المرأة الأوربية الأسيرة بالأراضي الإسلامية في الأدبيات البريطانية خلال الفترة الحديثة؟ وقد انبثقت الإشكالية الرئيسية مجموعة تساؤلات فرعية: – كيف ظهرت المرأة الأسيرة على المسرح الإنجليزي؟ وهل خدمت الرّوايات الخيالية البريطانية الأطروحة الغربية لتشويه صورة الإسلام في المجتمعات الأوربية؟

وللإجابة عن التساؤلات السابقة قسمنا البحث وفق الشكل الآتي:

تقديم المرأة الأوربية الأسيرة على المسرح البريطاني.

الروايات الأدبية الخيالية وتقديم المرأة الأسيرة للمجتمعات الأوربية.

ماري فيشر والأتراك والمنظور اللاهوتي المسيحي للمرأة (1658م).

تقديم المرأة الأوربية الأسيرة على المسرح البريطاني:

كان المسرح البريطاني أحد أكثر المسارح تأثيرا في المجتمع الأوربي وقد استخدم دائما ليعكس الخوف الجماهيري نحو القضايا العامة، ولهذا فالمسرح لم يكن مجرد أوقية للتسلية، ولكنه جاء ليطرح القضايا المهمة في المجتمع ، ويشوّه ما قد يهدد الوجود البريطاني سياسيا وأيديولوجيا خارجيا؛ ولهذا فقد ظهر الإسبان والمسلمون مرارا على المسرح الإنجليزي "أشرارا" باعتبارهم يشكلون تهديدا سياسيا وفكريا للأمة البريطانية على عكس اليهود الذين جاؤوا ليمثّلوا مجالا للسخرية؛ رغم امتلاكهم الفكر المناوئ لكنهم لم يملكوا العداوة السياسية (العسكرية) التي قد تهدد الوجود البريطاني.

جاءت المرأة في الأدبيات الغربية محورا دعائيا ضد ما يسميه الأوربيون "الهمجية الإسلامية" التي حملها الأتراك والمغاربة، فرمزت في أغلب المسرحيات والأدبيات البريطانية للشرف الغربي المنتهك ومن أجل ذلك دعمت باستمرار الكتابة حولها لإظهارها كمضطهد وأداة جنسية تعرّي العثمانيين من أي تقوى وتبرز الإسلام كدين وثني، فنلحظ إذا نحن أمعنا النظر أن أغلب المسرحيات حول الإسلام خلال القرن السابع عشر رسمت المرأة الأسيرة كبوتقة جنسية تزوجت الحاكم التركي مرغمة، فمنذ العهد الإليزابيثي وحتى

أواسط القرن السابع عشر جسّد الإسلام فوق المسرح الإنجليزي كرمز "للشر'، ويمكن أن نقرأ ذلك في مسرحية توماس كيد، التراجيديا الإسبانية سنة 1592م ومسرحية سليمان وبريسدا 1590م، ومسرحيات كريستوفر مورلاو "تامبرلين" والصادرة في جزأين 1587، 1588م، ويهودي مالطة 1588م، وجورج بيل، معركة واد المخازن 1588م، التاريخ الشهير لحياة وموت القبطان توماس ستاكلي 1596م، ومسرحيات روبيرت غرين "ألفونسو، ملك أرغون" سنة 1588م، "أورلندو فوريوسيو" سنة 1589م، و"سليم" 1594Selimusم، وفولك جريفيل في مسرحية "مصطفى" 1594م، وتوماس ديكر في مسرحية "طغيان الشهوة" Lust'sDominion سنة 1600م، وتوماس هيود "الفتاة الجميلة من الغرب" وجاءت في جزئين سنة 1602، 1630م، وروبيرت دابورن في مسرحية مسيحي اعتنق الإسلام سنة 1612م، توماس غوف في مسرحية "التركي الشجاع" 1618م، و"التركي الغاضب" Raging سنة 1618م، ومسرحية توماس ميدلتون وويليام راولي "الكل ضاع بشهوة" سنة 1620م، وفليب ماسنجر "المرتد" 1630م.

حسب تشو فإن هذه المسرحيات مكنتنا من قياس الحذر والأحاسيس الموجهة ضد المسلمين، ففي مسرحيتها "العبيد في الجزائر" وظفت راوسون سوزانا "القضية العنصرية" بطريقتها الخاصة؛ فنساء القصر في الجزائر كن مفتونات بجمال الرجال المسيحيين فهنّ مستعبدات من قبل أزواجهن البشعين. فإحدى النساء الجزائريات المسماة فتنة قالت لسليمة "من تتخلى عن شاب وسيم وظريف مسيحي لأجل مسنّ، بشع وخبيث تركي".واستمرت راوسون في تأصيل الطيبة الأوربية "ففتنة اكتشفت في النهاية أن أصولها بريطانية، واحتجت قائلة للأسير الأمريكي فريديريك الذي اعتاد أن يناديها بـ"جميلتي الجزائرية الصغيرة": "إلهي لست جزائرية Moor أنا أكرههم جميعا"،وأجبرت راوسون الأسير الإسباني سبستيان في مسرحيتها أن ينشد قصة أسره أين وصف الأتراك فيها بـ:"الأوغاد الأتراك... عصابة من الأنذال مخادعون وكفار وحقيرون".وفي المقابل تثبت المذكرات الشخصية الحقيقية أن الكثير من النساء الأوربيات فتنّ حسب كتّابها بالتركي الوسيم والأنيق فتخلّين عن مسيحيتهن ليملأن نهمهن الجنسي، ففي "عمل فيبرا لمؤلف مجهول كتب الأسير الذي زار فيبرا في الجزائر أواسط القرن الثامن عشر: "ويبدو من السهل التخمين؛ أن حبّها للشاب التركي الأنيق كان أعظم من حبها لدينها، بلدها، زوجها وأقاربها". (Khalid, 2010, p. 365) ويخبرنا بنانتي في مذكراته قصة زوجة جزائرية: "حاول أحد المسيحيين مغازلتها فأخبرت زوجها؛ كعربون حب وثقة بين الطرفين".(Pananti, 1818, p.163)

نشر توماس ديكر سنة 1600م مسرحية طغيان الشهوة أو الملكة الفاسقة (Thomas, 2005)، وجاءت المسرحية على شكل تراجيديا انتقامية؛ كان الهدف الأساسي منها الدعاية ضد السلطة الإسبانية والإسلامية. ويصور فيها ديكر كيف "أن أمير فاس الأزعر أسير السلطة الإسبانية الشجاع، عمل على الانتقام لمقتل والده للاستيلاء على التاج الإسباني. ولهذا الغرض اجتهد لإغواء والدة الأمير الإسباني إيجينيا للوقوع في حبه وفعلا فإن الملكة كانت متيمة بحبه؛ لدرجة أنها خاطبته في إحدى المرات: "إني

مستعدة أن أقتل ابني لأجلك". وقد تظاهر الأزعر بحب الملكة وعمل على التحكم بها ودفعها لقتل ابنها فليب، ليقتلها فيما بعد هي كذلك ويستولي على العرش الإسباني؛ لكن خطته كشفت في النهاية وحكم عليه بالموت.

وهكذا فإن المرأة صوّرت كرمزية للحرية الغربية. ففي مسرحية "العبيد في الجزائر..."": "أخبر الداي بن حسن أسيرته الخيالية ريبيكا في مسرحية "عبيد الجزائر": "سأجعلك زوجتي"، وعندما سألت ريبيكا: "ألست متزوجا؟" أضاف بن حسن: "لقد منحنا قانوننا الحرية في الحب، أنت أمريكية ويجب أن تحبي الحرّية".(Thomas, 2005, p.22) وواصل الأسير الإسباني في المسرحية "أن سيّده –مالكه– القايد الجزائري لديه 12 زوجة وما مجموعه ثلاثون خليلة"(El–Shinqiti, 2013, p.22)، لكن شالرفي مذكراته كقنصل أمريكي في الجزائر يؤكد أن عموم الجزائريين راضون بامرأة واحدة". (Shaler, 1826, p. 62)ونفس الأمر ذهب إليه الزياني: "فبعد أن اقترح عليه الباي إبراهيم إحدى الجواري، اعتذر منه لأنه متزوج بالقليعية ففيها فوق الكفاية...".(الزياني، 2013، صفحة 258)

صدرت مسرحية "الفتاة الغربية" أو "فتاة تستحق الذهب"(Heywood, 1631)، لصاحبها توماس هايوود سنة 1631م، وتضم المسرحية جزأين، وتدور أحداث المسرحية حول "فتاة تدعى بيس تعمل ساقية في حانة ببلاماوث؛ وكانت تملك من الجمال والجاذبية ما جعل العديد من سادة ونبلاء المجتمع ينجذبون إليها، وكان بينهم نبيل يدعى سبينسر وقع في غرامها وقد بادلته المشاعر، لكن صديقه غودباك أوصاه بأنها لا ترقى لمستواه كونها من طبقة دنيا. وبعد أن اعتدى أحدهم على بيس في الحانة قام سبينسر بالتدخل فقتله، ولتجنب المتابعة هرب رفقة صديقه غودلاك مع الأسطول البريطاني الذي هاجم جزر الآزور، وفي المقابل أرسل حبيبته بيس إلى حانة يمتلكها بفواي في كورنوال.

عاد غودلاك من الحرب معتقدا أن سبينسر قد توفي ورغم المعاملة السيئة التي كان يعامل بها غودلاك الآنسة بيس إلا أنها طالما عاملته بوقار واحترام، الأمر الذي جعله يعجب بها في النهاية. وبعد أن فقدت الأمل إثر وفاة سبينسر قامت باستخدام ثروتها، لتجهيز سفينة قرصنة وقادت غودلاك ورفقائها لمهاجمة السفن الإسبانية والعثمانية. وفي هذه الفترة استطاع سبينسر الهروب من قبضة الإسبان في الآزور واللجوء إلى المغرب، أين زارت العمورية وهناك كما يصور لنا هايوود"سمع الملك المغربي بجمال بيس فاستدعاها لبلاطه، ووقع في غرامها لكنها علّمته اللباقة والنبالة، لتلتقي في النهاية بسبنسر ويتزوجا تحت مباركة ونفقة الملك المغربي مولاي الشيخ"، ويخبرنا هايوود عن شغف الملك المغربي ببيس قائلا: "ويبدو أن الملك قد شغف حبّا، فمنظر بيس قد أسره، ورغم قلبها الحزين الذي لم يتحرك؛ إلا أن مشاعره نحوها كانت في ازدياد متواصل بمرور الساعات". (Heywood, The Fair Maid of the West, 1995, p. 75)

لم يشهد المسرح الإنجليزي حالة من التطرق لسكان شمال إفريقيا كذلك الذي وقع أواخر حكم الملكة إليزابيث الأولى وحتى العهد الجاكوبي. ويتساءل أحدهم: ما الذي يجعل الإنجليز يتطرقون للمغاربة أكثر من الشعوب الأخرى كالأمريكيين؟ يمكن أن تكون الإجابة بسيطة، فالسكان الأصليون في أمريكا كانوا محتلين بالقوة من قبل الأوربيين، ولم يشكلوا أبدا تهديدا لما يسمى "الحضارة الأوربية"، أما بالنسبة للمغاربة والأتراك؛ فقد كانوا العدو السياسي والعسكري والأيديولوجي للأوربيين، يضاف إلى هذا العداوة التاريخية؛ فالحروب الصليبية مجرد امتداد لحالة من الفكر الموروث حول الإسلام.

وتعتبر مسرحية "المرتد أو نبيل البندقية"(Philip, 1624)، آخر مسرحيات العهد الجاكوبي في إنجلترا ذات التراجيديا الساخرة، وتدور قصتها حول "مهتد يدعى أنطونيو غريمالدي كان قد أصبح قرصانا لدى مملكة تونس. وقد قُدّم البطل الحقيقي للمسرحية والمدعو فيتلي [نبيل بندقي] إلى تونس كتاجر يبحث عن أخته بولينا التي أسرها بحارة تونس، وهي الآن تعيش في حريم حاكم البلد. وبعد أن سمع الحاكم بالعلاقة الغرامية التي جمعت فيليتي بالأميرة المسلمة دونوسا سجنهما في برج مظلم، وهناك استطاع فيليتي اقناعها بالإرتداد إلى النصرانية. وفي الجانب الآخر فإنّ المرتد أنطونيو تمت معاقبته من قبل الحاكم لينهي مسيرته كقرصان. ندم أنطونيو لاعتناقه الإسلام وقام بإنقاذ النبيل وعشيقته المسلمة وأخته والفرار بعدها إلى إيطاليا".(قرباش، 2016، ص241)

يبدو أنّ اللبس الذي خلقه كتاب الفترة الحديثة من البريطانيين يفتح عديد التساؤلات؛ حول اعتناق المرأة والرجل للإسلام في الدعاية الخيالية التي كان يشنها المسرح وكتاب الروايات الأدبية؛ ولكن نظرة سريعة تثبت أن المسرح كان يمثّل انعكاسا لخوف السلطة والمجتمع من الاعتناق المتزايد للإسلام؛ خاصة مع الهجرات الاختيارية التي قادها الكثير من الأوربيين باتجاه الجزائر بحثا عن حياة جديدة، وتؤكد بعض الإحصاءات أن "عدد الإنجليز الذين وجدوا بالجزائر قبل الهجرات الكبرى سنة 1620م كان أكثر من عدد الإنجليز المتواجدين بالعالم الجديد".(Vitkus, 2001, p.04) وتفيد وثائق محاكم التفتيش أن 284 حالة إسبانية دخل أصحابها الإسلام بين سنتي 1560-1700م، كانت منها 29,57% اختيارية، ويؤكد بنصار أن الأرقام المقدمة أقل من الحالات اليقينية.(مروش، 2009، ص179)

طغت حالات الكتابة حول المغاربة والأتراك على أغلب كتاب المسرحيات، فها هو شكسبير يصف الجزائر في مسرحيته "العاصفة" (Shakespeare, 2000)"ببلد السحرة والخارجين عن القانون"، وأما في مسرحيته "عطيل أو أوثيلو"(SHAKESPEARE, 2001) فقد صوّر قائدا مغربيا أسود البشرة اعتنق المسيحية، انتحر في النهاية بالسم بعد أن شك في زوجته المسيحية التي قتلها بيديه. وجاءت مسرحيته تاجر البندقية لتعكس النظرة الإيديولوجية التي صور بها الكتاب الآخر غير الإنجليزي، فجاء اليهودي مهرجا وشخصا مرابيا مُتَعَاطَفا معه، أما ملك أراغون الإسباني فكان شخصا معتوها وأحمقا، وقُدِّم الملك المغربي كرجل أسود، يحب العذارى، قاس وشجاع، "فبعد أن زار بورشيا في قصرها بالبندقية

يريد طلب يدها، خاطبها الملك المغربي يقول: لا تكرهيني لأجل لون بشرتي، فشعبي يسكن بالقرب من الشمس... كما أقسم لك أنّ أجمل العذارى في بلادنا قد شغفن بهذا الوجه حبا". (شكسبير،1994، ص 43) لكن بورشيا اختارت في النهاية باسانيو النبيل البندقي الأنيق رغم فقره.

لم يقاوم الكتاب الانجليز خيالهم المرهف، فأوجدوا المسارح دون أي مؤرخين أو أي فكر ديني، مثل رسامي النهضة الذين صوروا المسيح (عيسى عليه السلام) ورسله الحواريين بملابس ايطالية معاصرة وبأسلوب وموضع في الناصرية والبناء على الطريقة الفلورنسية، ونفس الشيء فعله الكتاب الانجليز الذين صوروا السكان المغاربة بالزي الانجليزي الصناعي، بحيث أنه ولا أي فرد مغربي في الدراما الإليزابيثية يوحي بالانتماء للإسلام... فهؤلاء الكتاب الذين افتدوا من الأسر لم يكونوا موضوعيين؛ لأنهم كانوا دائما معاقين بأولئك الكارهين والحاقدين على الإسلام.(Vitkus, 2001, p.07)

صدرت سنة 1813م أوبرا "الفتاة الإيطالية في الجزائر" بنسختها الإنجليزية(Rossini, 1813) لصاحبها روسيني جيوتشينو؛ "لقد كانت إليفيرا ترافق أَمَتَهَا زولما نادمة على فقدان حب زوجها الباي التركي مصطفى، في الوقت الذي كان الباي يخطط لتزويج إلفيرا إلى أسيره الإيطالي ليندرو. ويبدو أن الباي كان قد ملّ من حريمه ويريد فتاة إيطالية جديدة لملء نزواته الجنسية. استقبل الباي مصطفى الأسير ليندرو ليشرح له خطته لتزويجه طليقته السابقة، لكن الأخير حاول أن يرفض العرض، فقد كان غارقا في التفكير بعشيقته. وفي المقابل فإنّ عشيقة ليندورو المسماة إيزابيلا وقعت أسيرة في يد أحد "رياس" الباي المدعو علي والذي جلبها إلى القصر، وكان يرافقها أحد الأسرى المدعو توليدو الذي كان يغار كثيرا من ليندرو. وفي القصر فإن ليندروإلفيرا لم يرغبا في الزواج من بعضيهما، لكن الباي عرض على ليندرو قبول العرض على أن يوفر له سفينة للعودة إلى إيطاليا.

وافق ليندرو على مضض، ودخل بعدها الرايس علي ليعلم الباي أنه أسر فتاة إيطالية، أين التقى الباي مصطفى بإيزابيلا في بهو القصر وبدى مندهشا ومسحورا بجمالها؛ وفي هاته الأثناء قدم ليندرو وإلفيرا ليودعا الباي،وقد بدت إيزابيلا مندهشة لرؤية عشيقها، لتعلم بعدها بأن ليندرو أجبر على الزواج من زوجة الباي السابقة، ما جعلهما يتفقان على الهروب من الجزائر، وقد اعترضت تحقيق الأمر عدة عوائق، لكنها استطاعت أن تعلم إلفيرا كيفية التحكم في الرجال، وبعد العديد من الحيل استطاعت أن تجعل حراس الملك يشربون الخمر ويفقدون الوعي؛ لتستطيع وليندرو الفرار في أحدى القوارب باتجاه إيطاليا.

أظهر الكتاب تأثرهم بالروح الكنسية، فأغلب هاته الأعمال كانت تتفق في تقديمها للمسلم الحاكم على أن المرأة في مخياله مجرد دمية جنسية، وقدمت كضحية عفيفة تكره الحاكم المسلم؛ ففي إحدى الحوارات داخل الأوبرا السابقة: "فكرت إيزابيلا بأن الباي مجرد أبله دميم وشديد البدانة، وفكّر الباي: يا لها من شهية تليق بي". ويبدو أن روسيني قد تأثر بعمل موزارت "اختطاف من السراي"(Mozart, 1782) الذي

ألف سنة 1782م، أين يقوم البطل "بليمونت" وبمساعدة الخادم بيدريلو بإنقاذ حبيبته كوستانزا من حريم السلطان سليم باشا.

ولم تكن فرنسا أحسن حالا في تقديمها للمرأة، ففي مسرحية "مأساة زارا" 1733م، يحاول فولتير أن يخبرنا بأنّه "تم أسر زارا وأخيها نيريستان طفلان صغيران وفرض عليهم اعتناق الإسلام، ورغم صغر سنه فقد طلب نيريستان العودة إلى الديار لجمع التبرعات لافتداء أخته وتسعة من الأسرى الآخرين، وفي غياب أخيها وقعت زارا في حب عثمان أحد أبناء السلطان، ووافقت الزواج منه إذا جعلها الزوجة الوحيدة وأن يلغي الحريم، وبعد عودة أخيها حاول إقناعها بفكرة العدول عن الزواج من السلطان، والعودة إلى المسيحية والتخلي عن الإسلام، وقد كان عثمان يراقبهما معتقدا أنهما عشيقان فقام بطعنهما، ويقتل نفسه بعد اكتشاف أن نيريستان شقيقها".(Hoeveler, 2006, p.55)

2. الروايات الأدبية الخيالية وتقديم المرأة الأسيرة للمجتمعات الأوربية:

لم يستقر الوضع على دعم المسرح الإنجليزي وإنما تخطى ذلك إلى الروايات الخيالية التي تثبت المفهوم الأوربي السلبي عن المسلمين، وهكذا فقد لاقت القصص والروايات الخيالية [حول وضعية النساء المسيحيات] رواجا واسعا في العالم المسيحي، ولعل أشهر النساء اللاتي كتبن في الموضوع أوبين بينيلوب(التعليق رقم 01)، وأشهر أعمالها "The Noble Slaves أين طبع 6 مرات كاملة سنة 1722م وعم كلاّ من إنجلترا والمستعمرات البريطانية في العالم الجديد، وطبعت روايتها ...ثلاث مرات خلال نفس السنة".(Hoeveler, 2006, p.53)

تطرقت روايتها الخيالية إلى ما اصطلحت عليه "عمليات الاختطاف"، وكذا مهام الأسيرة في حريم الجزائريين، ولم تكن أعمالها مجردة؛ فأوبين حاولت تقديم الإسلام كحالة سياسية تهدد أمن ووجود بريطانيا التجاري والبحري في المتوسط, ويؤكد ساندر أنّ "أوبين تعتبر أول امرأة أظهرت بريطانيا كمعادي للشرق: الخارج عن السيطرة والجنسي المتجرأ". (Hoeveler,2006, p.52) وفي مقدمة إحدى الروايات الخيالية كتبت أوبين: "في بلداننا يولد المواطنون أحرارا، أين توجد الحرية والملكية الشخصية محفوظة لأجلنا بقوة القانون، ذلك أنه لا يمكن لأي أمير أن يستعبدنا، فإن أمم العبودية غريبة جدا. فلا يمكن أن نفكر إلاّ برعب في المعاناة التي تنتظر أولئك الذين يتواجدون في دول بها الملكية مطلقة... فالجزائريون والأتراك مشهورون بهاته الوحشية... فهناك يعطي العاهل فضاضة لعواطفه اتجاه المرأة الأسيرة، ولا يعتقد أن من الجرم قبوع العديد من النساء تحت رغباته، لأن شهوته تدفعه ليعجب". (Hoeveler, 2006, p. 52)

وتعطي لنا إليزا هايوود Eliza Haywood نظرة مختلفة نوعا ما عن أوبين بعد أن تبعتها في نفس الحقل، وأنتجت مجموعة روايات؛ فأظهرت في العديد منها ،أن الآسر المسلم يعتبر أكثر انسانية من نظيره الأوربي، كأعمالها Idalia سنة 1723، التحقيق العقيم 1727م، Philidore and Placentia

سنة1727.(قرباش، 2016، ص173)

لكن ورغم أنّ إليزا كانت إحدى الكتاب الذين أنصفوا المسلمين عند المقارنة؛ إلا أن عملها " The Fair Captive" أظهر الرغبة الجنسية التي تتلبس المالك اتجاه أسيرته، وفي المقابل فإن العمل احتوى أبطالا مسلمين مثلما حدث مع إيرين، عثمان وأحمد، وتلك من الحالات القليلية التي يكون فيها البطل مسلما، "ففي غياب السلطان العثماني، سيّر الصدر الأعظم مصطفى الإمبراطورية، وكانت إيزابيلا إحدى أسيرات الحريم تحب ألفونسو الذي كان يحاول افتدائها، لكن الصدر الأعظم مصطفى رفض العرض، وعمل بعدها على إغوائها، فأسر حبيبها ألفونسو. ورغم تدخل زوجته إيرين التي تحالفت مع أعدائه (عثمان وأحمد) لتهريب إيزابيلا خارج القصر إلاّ أنّ إيزابيلا الجريئة زارت مصطفى بغرفته وتذرعت أمامه ليعفو عن ألفونسو، وعرضت نفسها عليه. وكانت دراكسا ابنة السلطان تثق في مصطفى وأطلعته على خطة إيرين فقتلها. انتهت الرواية بثورة قادها عثمان وأحمد أنهت حكم مصطفى، حررت جرّاءها الأسيرة وحبيبها".(Gould, 2015, p.05)

حاول بيتر ماركو الشاعر والأديب الأمريكي في عمله التهكمي "الجاسوس الجزائري" تأكيد الشهوانية العثمانية، فافترض أن السلطان العثماني كان يرغب في أن يرسل مئات الآلاف من جنوده لمساعدة رود آيلند(التعليق رقم 02) الأمريكية للانفصال عن الولايات المتحدة الأمريكية لتصبح محمية عثمانية، وقال: "وكجميع الأمم فأمريكا يجب أن تدفع لأجل الحماية العثمانية،وحتما سيسمح لهم أن يدفعوا الضريبة للسلطان العثماني على شكل نساء عذراوات".(Markoe,1787, p.105) وهي إشارة واضحة إلى "محاولة ربط الرغبة الجنسية بالحكام المسلمين إجمالا"، وجعلها سمة تولد مع الحاكم العربي الشاذ جنسيا وفق ما طرحته هاته الكتابات، ونقل المخيال الذي خلقته الأدبيات البريطانية إلى الصحف والجرائد الصادرة يوميا، "ففي ماي سنة 1785م نشرت الصحف الأمريكية رسالة من داي الجزائر يطلب فيها الجزية من الولايات المتحدة الأمريكية... وأربعين فتاة جميلة وعفيفة، لا تقل أعمارهن عن 12 سنة ولا تزيد 18 سنة من والدين شريفين".(قرباش، 2016، ص 82).

3. ماري فيشر والأتراك والمنظور اللاهوتي المسيحي للمرأة (1658م):

يرى جون فوس الأسير الأمريكي في الجزائر بمذكراته أنّ "الجزائريين يؤمنون بأن المرأة لا تملك روحا وأنها خلقت لمجرد التكاثر، ولهذا فقد منعت من دخول المساجد". (Foss, 1798, p. 65) عمد الكتاب دائما إلى تقديم المسلم لقرائهم في أسوئ صورة دون معالجة نقدية وإنما بنظرة لاهوتية متعصبة، فنظرة فوس والكتاب الأوربيين التي تكررت في المؤلفات الغربية الحديثة في نظرتها للمسلم هي ذاتها المشكلة التي كان يعيشها المجتمع الغربي نفسه في تعامله مع المرأة المسيحية، فجورج فوكس أكد أنه

"التقى في انجلترا مع صنف من المسيحيين يحملون في ذواتهم فكرة أن النساء ليس لديهن أيّ روح ولا تعدو المرأة أن تكون إوزّة **Goose**"، ويواصل: "لكنّني أثبت لهم وأخبرتهم أن الأمر غير صحيح، ذلك أن سيدتنا العذراء مريم قالت: "إن روحي تعظم الرب، وقد فرحت روحي بربّي مخلّصي"، وخلال رحلاته دافع فوكس عن حق المرأة في التحدّث علانية، ففي "إحدى المرات حاول أحد الكهنة إسكات امرأة بقوله "لا أسمح لامرأة بالحديث في الكنيسة" ودافع فوكس عن منطقه "بالنسبة لامرأة سألت سؤالا، كان يجب عليه أن يجيبها وأن يسمح لأي شخص في الحديث".(Bernadette, 2007, p. 55) وقد دعم دفاعه السابق في عمل نشره بعنوان "المرأة تتعلم في صمت..."(Fox, 1661) وأكد نفس النظرة المنظر الكويكرزي ريتشارد فرانوورث في عمله "امرأة منعت من الحديث في الكنيسة...":"أنه يجب أن يسمح للروح أن تتحدث من خلال المرأة كما يقع مع الرجال أيضا".(Bernadette, 2007, p. 56)

إنّ عملية تجسيد الصورة أمر شائع في الطرح الأوربي الدعائي خلال الفترة الحديثة، ولنوضح أكثر فالعملية تتعلق بنقل المعنى إلى صورة، وهكذا فقد صوّر الغرب الإيديولوجيات التي اختلفت معهم في رمزية تجسّد الآخر، فرُسم المسلم (الإيديولوجي) خلال الفترة الوسيطة والحديثة في صورة إنسان همجي وشاذ جنسيا، وقد ظهر أيضا مصطلح الإرهاب أول مرة في عمل نولز "تاريخ الأتراك..." كرمز للحاكم المسلم إلا أنه كان نوعا ما رمزا إيجابيا يشير إلى الهيمنة العثمانية: "لقد أصبح محمد الثالث 1566-1603م بعد فترة قصيرة من اعتلائه العرش أحد أعظم مرهبي العالم " The Greatest Terror of The world"، وقد سيطرت على عملية نقل المعنى إلى صورة خلال الفترة العثمانية فكرة "الهمجية والوحشية" في تخيّل المسلم، فكتبت إليزابيث برادلي "أن الرجل الذي أرسله زوجها لتحريرها وعلى الرغم من سمرة بشرته، لا يختلف عن مظهر عربيّ همجي".(Bradley, 1820, p. 277) وفي المقابل أكد بعض الأسرى في العديد من الصفحات أن الفرد العربي ودود ولطيف؛ كما فعل توماس سميث عندما أشار إلى "العرب": "هم أناس متخلقون جدا ومهذبون... لطفاء، مضيافون ومتحررون" (Thomas S ,1670, p.124).

وهكذا ترجم الإسلام في اللاوعي الأوربي كدين طغيان، معادي للمسيحية، شهواني ومضطهد للمرأة، فجون أدامز رئيس الولايات المتحدة الأمريكية – في خطاب له رأى أن "من نتائج الفوضى التي تبعت الثورة الفرنسية حكم طاغية لا يعدو أن يكون محمدا [صلى الله عليه وسلم] متعصبا آخر". وشبّه جون كويني أدامز الرئيس فرانكلين جيفرسون بالرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن قام جيفرسون بالدفاع عن فكرة القضاء على العبودية".(Kidd,2003, pp. 787-788)

ومن خلال الطرح السابق فإن الإسلام ورموزه طالما مثّلوا الجانب المظلم في الحضارة الغربية فجُعلوا كمقياس لكل شخص غير مرغوب فيه في المناظرات، "فاستخدم الإسلام لدى النخبة البروتستانية كمقياس جدلي ضد الربوبيين Deists، الكاثوليك، الكويكرز، المارمونز والهراقطة في المعتقد البروتستانتي، فمثلا

هاجم العالم البروتستانتي روجر ويليام (1603–1684م) أحد قادة المذهب الكوكرزي المنشق عن البروتستانتية جورج فوكس (1624–1691م) ناعتا إياه بهذا "محمد [صلى الله عليه وسلم] الجديد"(Kidd, 2003, pp. 767–768) وأما المعارضون لجوزيف سميث أول نبي مورمنزي فقد أشاروا إليه كـ"محمد [صلى الله عليه وسلم] الأونتاريوني"، "محمد [صلى الله عليه وسلم] اليانكي" و"محمد [صلى الله عليه وسلم] الأمريكي".(El–Shinqiti, 2013, pp. 17–18)

وما يجعل هاته الأدبيات البريطانية مليئة بالمغالطات في تقديمها للمسلم، نظرة بعض المذكرات الشخصية الحقيقية التي رأت في العثمانيين أكثر لطفا مع النّساء، ودائما ما يأتي التحليل النفسي ليعبر في اعتراف الآخر للآخر جزء من "صدق المعلومة"، ففي سنة 1658م سافرت ماري فيشر في مجموعة مكونة من ستة أفراد من طائفة الكويكرز إلى البحر المتوسط لتقابل السلطان العثماني محمد الرابع (1643–1693م) أملا في إقناعه بـ "المذهب الكويكرزي" ورأت في رحلتها جزءا من "إسكات الضمير"(Bernadette, 2007, p. 56)، وصلت سفينتهم سميرنا أين التقت بالقنصل الإنجليزي وسألته عن طريقة للتواصل مع السلطان العثماني، لكن القنصل رأى أن مواصلتها في هدف مقابلة السلطان أمرا طائش، فقام بخداعها وإرسالها مع قارب متجه نحو البندقية، لكن ماري اكتشفت الأمر وطلبت من القبطان أن ينزلها على سواحل موريا في اليونان، ومن هناك أكملت طريقها على قدميها فعبرت مقدونيا وتراقيا إلى أن بلغت معسكر السلطان الذي كان مع الجيش في أدرنة.

التقت هناك بالصدر الأعظم كورغلي محمد باشا الذي دبر لها لقاءا مع السلطان العثماني، وقدمت نفسها على أنها سفيرة "الربّ العليّ القدير"، وحسب مذكراتها فإن السلطان سمع رسالتها بصدر رحب، ورفضت عند عودتها عرض السلطان في أن ترافقها سرية عثمانية لحمايتها في الطريق، أين سافرت باتجاه القسطنطينية وكتبت مذكراتها هناك لتعود بعدها عادت إلى إنجلترا.وقد "اعترفت بشرعية النبي محمد صلى الله عليه وسلم كرسول من الله" (Mary Fisher c.1623–1698, n.d.)، ومما جاء في مذكراتها "لقد عدت الآن لإنجلترا... وإنّي قد نقلت شهادتي الإلهية أمام الملك –السلطان العثماني– الذي أُرسلت له، وقد كان نبيلا جدا معي... إن العديد منهم يخافون الله... هناك بذرة ملكية بينهم... إنهم أكثر إيمانا من عديد الأمم، وقد ولد حب بداخلي اتجاههم والذي لا ينتهي، لكن هذا أملي بخصوصهم، ذلك أن اللّه الذي حفزني لحبهم أكثر من الشعوب الأخرى سيلقى نسله بهم... وعلى الرغم من تسميتهم مسلمين Turks فإنّ نسلهم أقرب إلى الله".(Mary Fisher c.1623–1698, n.d.)

خاتمة:

وانطلاقا مما سبق انبثق عن المقال مجموعة نتائج نذكرها كالآتي:

استطاعت الأدبيات البريطانية رسم نموذج "الحاكم المسلم" في المخيال البريطاني على أنه رجل منحرف جنسيا.

لم يكن كتاب الأدبيات البريطانية واقعيون أبدا، ذلك أن كل كتاب المسرحيات قدموا "التركي والمغربي" على الخشبة بالزي البريطاني، وكرمز لقوى الشّر.

عكست هاته الأدبيات الخوف الذي كان يعتري الأمة البريطانية سلطة وكنيسة من اعتناق المسيحيين المتزايد للإسلام.

أغلب النساء الأسيرات اللاتي اخترن الزواج في شمال إفريقيا، كان اختيارهن ينبع عن رغبة وقناعة، "ففي سنة 1627م رفضت آنا زوجة مزارع آيسلندي العودة إلى الديار؛ رغم وصول أموال فديتها، وفضّلت اعتناق الإسلام والزواج من أحمد أحد سكان مدينة الجزائر"(Helgason, 2018, p.07) طالما عكس تقديم المرأة في الأدبيات البريطانية محاولة إظهار المسلم على أنه مجرد "بوتقة جنسية". وظف مصطلح المغاربة Moor للإشارة إلى سكان شمال إفريقيا والأتراك إجمالا في كل المسرحيات التي أشارت إلى مسلمي شمال إفريقيا؛ لكن في بعض الأحيان كان المصطلح يشير إلى السكان الذين يقعون خارج فئة "الأوربيين، اليهود والمسيحيين، وكان يمكن أن يكونوا آسيويين، سكان أمريكا الأصليين، أفارقة، عرب وكل جنس يدين بالإسلام".(Barthelemy, 1987, p.11)

قائمة المراجع:

أولا – المراجع باللغة العربية:

– بلقاسم قرباش.(2016).الأسرى الأوربيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671–1830م). جامعة معسكر: أطروحة دكتوراه.

– التعليق رقم 01.أوبين بيلينوب: (1679–1738؟)، روائية، شاعرة ومترجمة بريطانية. ولدت بلندن، ابنة السير ريتشارد تيمبل وأني تشارليتون، ويبدو أنها تأثرت بخالها الفيلسوف والطبيب والتر تشارليتون. تزوجت سنة 1696م إبراهام أوبين، وأنجبت له ثلاثة أطفال: ماري، أبراهام وبينيلوب. نشرت سبع روايات بين سنتي 1721–28م. عملت في البداية على كتابة الشعر لتتحول سنة 1721 لكتابة الرواية، وقد ترجمت بعض الأعمال الفرنسية سنة 1720م، وكتبت سنة 1730م مسرحية. توفيت سنة 1738م, وبعد القرن الثامن عشر لاقت أعمالها رواجا واسعا بين القراء نظرا لطريقة الكتابة التي تبنتها. ينظر: William H. McBurney, (1956). "Mrs Penelope Aubin and the Early-Eighteenth Century English Novel'..Huntington Library Quarter

– التعليق رقم 02.رود آيلند: ولاية أمريكية تابعة لمنطقة نيو إنغلند تقع شمال شرق الولايات المتحدة الأمريكية، وتعتبر أصغر ولاية في البلاد.

– المنور مروش.(2009). دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، "القرصنة الواقع والأساطير" (المجلد ج02). الجزائر: دار القصبة.

– الزياني. (2013). دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران (المجلد تح. المهدي البوعبدلي). الجزائر: عالم المعرفة.

– ويليام شكسبير. (1994). تاجر البندقية (المجلد تر. حسين أحمد أمين). لبنان، لبنان: دار الشروق.

ثانيا – المراجع باللغة الأجنبية:

-Anthony Gerald Barthelemy .(1987) .Black Face Maligned Race: The Representation of Blacks in English Drama from Shakespeare to Southerne, PhD thesis.,London ،PHD: Louisiana State University.
-Bernadette, A. (2007). Women And Islam In Early Modern English Literature. Cambridge: Cambridge University Press.
-El-Shinqiti, E.-M. (2013). Early American Perceptions of Muslims. Birey ve Toplum.
-Eliza Bradley .(1820) .An Authentic Narrative of the Shipwreck and Sufferings of Mrs. Eliza Bradley, the Wife of Capt. James Bradley, of Liverpool, Commander of the Ship Sally, which Was Wrecked on the Coast of Barbary, in June 1818.
-Foss, J. (1798). A Journal of the Captivity and Sufferings of John Foss several years a prisoner at Algiers; together with some account of the treatment of Christian slaves when sick: and observations on the manners and customs of the Algerines (Vol. 2nd). ed. Pub. acc.
-Gioachino Rossini .(1813) .The Italian Girl in Algiers.London.
-Gould, R. (2015Markoe, P. (1787). The Algerine Spy in Pennsylvania: Or, Letters Written by a Native of Algiers on the Affairs of the United States in America, from the Close of the Year 1783 to the Meeting of the Convention. Prichard & Hall.
-Heywood, T. (1995). The Fair Maid of the West. Publishing Dramatic.
-Hoeveler, D. (2006). Interrogating Orientalism: Contextual Approaches and Pedagogical Practices. Ohio: Ohio University Press.
-John Fox .(1661) .The Woman Learning in Silence: Or, The Mysterie of the Womans Subjection to her Husband, As also, The Daughter Prophesying (1655) and Concerning Sons and Daughters, and Prophetesses Speaking and Prophecying, in the Law and in the Gospel.
-Khalid, B. (2010). White Women Captives in North Africa, Narratives of Enslavement, 1735-1830. UK: Palgrave Macmillan.
-Kidd, T. S. (2003). "Is It Worse to Follow Mahomet than the Devil?". Early American Uses of Islam, Vol.72(04).
-Mary Fisher c.1623-1698. (n.d.). Retrieved from Quakers in the World: http://www.quakersintheworld.org/quakers-in-action/187
-Massinger Philip .(1624) .The Renegado or The Gentlemen of Venice.London.
-Pananti, S. (1818). Narrative of a Residence in Algiers; Containing a Geographical and Historical Account of the Regency; Biographical Sketchs of the Dey and his Ministers. London: Printed for Henry Colbur.
-Thomas Heywood .(1631) .The Fair Maid of the West, or a Girl Wo;rth Gold.London: Pr for Richard reyson.
-Thomas, D. (2005). Lust's Dominion: Or, the Lascivious Queen. London: Moroccan Cultural Studies Centre.
-Thomas, S. (1670). The Adventures of Mr. T.S an English Merchant, Taken prisoner by the Turks of Argiers, and Carried into the inland countries of Africa with a Description of the Kingdom of Argiers, of All the Towns and places of note thereabouts... Printed by Moses Pitt: London.

-Vitkus, D. j. (2001). Piracy, Slavery, and Redemption, Barbary captivity narratives from early modern England, Introduction by Nabil Matar.New York: Colombia University Press .
-William Shakespeare .(2000) .The Tempest.Cambridge: Cambridge University Press.
-William SHAKESPEARE .(2001) .Othello.Classic Books Company.
-William Shaler .(1826) .Sketches of Algiers, political, historical, and civil; containing an account of the geography, population, government, revenues, commerce, agriculture, arts, civil institutions, tribes, manners, languages, and recent political history....Hilliard and company.
-Wolfgang Amadeus Mozart .(1782) .ie Entführung aus dem Serail.Berlin.
-Þorsteinn Helgason .(2018) .The Corsairs' Longest Voyage: The Turkish Raid in Iceland 1627.Brill.